٤ ـ جامع احمد ابن طولون

للأستاذ أحمد رمزى بك

فنصل مصر فى سوريا ولبنان

ولا أجد حرجاً من إيراد نص اللوحة التذكارية التى كتبت بالخط الكوفى المزهر لذلك العهد وفيها :

« نصر من الله وفتح قريب ، لعبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، أمر بتجديد هذا الباب ، وما يليه عند عدوان النار على أيدى المارقين ، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الأنام أبو النجم بدر المستنصرى ، أدام الله قدرته ، وأعلى كلمته ، ابتغاء ثواب الله ، وصلب مرضاته وذلك فى صفر سنة سبعين وأربعمائة »

وتدل تلك الكتابة على حوادث الثورة ، التى جرت فى عهد المستنصر حينما اعتصم بعض الثوار بالجامع وتحصنوا فيه ، فحوصروا وأحرق بسبب ذلك جزء منه جدده الأمير بدر الجمالى وزير الدولة الفاطمية

* * *

فى تاريخ مصر العربية ، وقفات حزن وأسى ولوعة ، اضطرب فيها قلب مصر كما قال أحد كتابنا فى دفن الزعيم مصطفى كامل ، ولقد قال شوقى يومئذ :

شقت لمنظرك الجيوب عقائل ويكتك بالدمع المتون غوانى

ولقد وقفت القاهرة صفاً صفاً ، تودع الزعيم الشاب إلى مرقده الأخير ، وأثر فى هذا المنظر ، أنا القاهرى الناشىء ، فصرت وطنياً وأنا فى السابعة إلى نهاية ما يكون الوطنى عليه فى الحماس

وأثر فى كرجل يميل إلى التاريخ والأدب ، فصرت أتتبع أيام مصر التى اضطرب فيها قلبها ، اضطراب يوم مصطفى كامل

وإنى لأذكر بعد البحث ، أن صفحات تاريخنا مملوءة ، بمثل هذا اليوم ، ولكنى لا أجد حزناً ولوعة بنسبة حزن مصر وأهلها على زوال ملك الفاطميين

إن ما وصل إلينا من ذلك قليل من كثير ، ولكنه يفيض حناناً . والحقيقة أن العصر الفاطمى قد ترك فينا معاشر المصريين أكبر الأثر ، وصبغ حياتنا صبغة خاصة ، فإذا أردت أن تدرس مصر العربية ، لا تنسى أن تدرس الدولة الفاطمية بالتفصيل ، فنحن لا نزال نسير على سننهم ومراسمهم ؛ فزيارة آل البيت فرض على كل من يؤم القاهرة من أهل الريف ، والاحتفال بصلاة الجمعة اليتيمة والعيدين ، والاهتمام بالقراء والتلاوة والتلقين كلها من آثار ذلك العهد

ومنذ أيام كنت أقلب كتاب الروضتين فجاء ذكر الشاعر عمارة اليمنى بأنه من أتباع الدولة المصرية وأورد له شعراً رقيقاً يفيض حنواً على الإمام العاضد آخر خلفائهم إذ يقول :

أسفى على زمن الامام العاضد أسف المقيم على فراق الواحد

لهفى على حجرات قصرك إذ خلت بابن النبى من ازدحام الوافد

ولقد دفع عمارة الشاعر الثمن بحياته جزاء إخلاصه ، وبشعره تطوى صفحة من تاريخ مصر ، تصحبها نغمة من نغمات الحزن العميق والتقدير ، لندخل طوراً من أطوار المجد والبطولة تغمره الحوادث والمعارك والنصر والغلبة

أنتقل إلى القسم الأخير من هذه الكلمة ، فأعرض لوصف المسجد وصفاً مختصراً :

الجامع الطولونى هو الثالث فى ترتيب المساجد الجامعة التى أقيمت فيها صلاة الجمعة فى مصر ، بعد الفتح التحريرى العربى ، بناه الأمير أحمد بن طولون على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة ، بينها وبين الفسطاط ، فى حى السيدة زينب الآن ، وهو أقدم مساجد مصر بلا نزاع ، بل أقدم آثارها العربية ، بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وأول جوامع مصر هو الذى بناه عمرو بن العاص ، ثم جامع العسكر . فلما قدم ابن طولون صار يصلى فيه الجمعة بجنده وسودانه ، فشكا أهل مصر إليه ، فعزم على بناء جامع ، فأشار عليه جماعة من الصالحين أن يبنيه على جبل يشكر ، وذكروا له فضائله فأخذ برأيهم .

ذكر ابن دقلق والمقريزى عن هذا المسجد من أن بناءه أقيم على مثال جامع سامرا أو سر من رأى

ولقد ذكر الأستاذ كريزول ما يأتى :

إنه على عهد بنى أمية كانت الدولة عربية خالصة ، وكان يغلب على العمارة التأثير السورى واستعمال الفسيفساء

ثم انتقلت عاصمة الخلافة إلى بغداد فى عهد بنى العباس ، وصارت مركز التطور الدولى ، فغلبت على العمارة المؤثرات الفارسية وأساليب العمارة الساسانية والعراقية

وابن طولون من مواليد سامرا وقد جاء إلى مصر يحمل معه كل تقاليد البلاط ، وما من شك فى أنه يميل إلى تقاليد مولاه

كتب الكثيرون فى وصف المسجد ، ولقد أخذنا ما تقدم نقلاً عن الأستاذ محمود عكوش فى كتابه المطبوع ١٩٢٧ ، ولكن ظهر بين يدينا اليوم كتاب الأستاذ كريزول العظيم ؛ ويتضح من أبحاثه التى قام بها فى العراق والصور التى أخذها لجامع سامرا من الجو ، أن التماثل بين المسجدين عظيم ، وأن مسجد ابن طولون ما هو إلا صورة مصغرة للمسجد الذى بناه المتوكل فى عاصمة ملكه سامرا بالعراق

فإذا كانت البوائك على صفين من الجانبين فى مسجد مصر ، فهى أربعة فى مسجد المتوكل ، وقس على ذلك السعة والأروقة والارتفاع والضخامة ، ولقد كشفت صور الجو أن تحت الثرى مدينة بأكملها قد غطتها الفيضانات العالية ، بدجلة تنتظر الكشف لتخرج مدينة سامرا القديمة بشوارعها ومبانيها كما كانت فى أيام العباسيين

ولا شك فى أن مسجد ابن طولون سيكون انموذجاً ، قد حفظته مصر للعراق ، إذا فكرت الحكومة العراقية فى إعادة بناء مسجد المتوكل ، إنه سيكون تحفة من تحف الدنيا ، ومظهراً من أضخم مظاهر مدنية العرب ، وجبروتهم فى العمارة والإنشاء

ونعرض هنا إلى موضوع المنارة ، فهى من أغرب ما يصتوقف الأبصار ، وتعد من الألغاز لأنها مبنية على شكل لا نظير له فى المنائر بجميع الأقطار العربية والاسلامية . ولقد انقسم العلماء واختلفوا كعادتهم هل هى لاحقة لبناء المسجد ، أم بنيت معه وهل هى صورة من منارة سامرا الحلزونية ؟ والعلماء وهم كعادتهم قد جزموا بأن الأثر البيزنطى ظاهر واضح فى كل شىء ، وأن العرب لم يأتوا بجديد ، فكبر على نفوسهم أن تأتى الحفائر والا كتشافات فتظهر أن المسجد صورة من مسجد عربى ، أكبر من هذا هو جامع سامرا ، وأن الأسطورة البيزنطية لا شأن لها اليوم وقد وضعت العناية الحق على لسان الأستاذ كريسول فدعمه بعلم وتمحيص دقيق يعجز عنه المتصدرون لاستعمال العلم لغايات فى أنفسهم هى الإقلال من شأن العرب والعروبة

وللمنارة حديث طويل ، وفى أواخر القرن السابع الهجرى لجأ إليها الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، وكان المسجد مهجوراً ، ويوقد به سراج واحد ، ويدخله خادم ، وقد تعطلت الشعائر الدينية فيه

(البقية فى العدد القادم)

أحمد رمزى